الخـروج مـن التــاريـخ

د. محـمـد صـابر عـرب

مرت ستة عقود على القضية الفلسطينية دون أن تتحرك إلى الأمام ولـو قيـد أنملـة، بـل العكس هـو الـصحيح، فالقضية بجوانبهـا الـسياسية والاجتماعية والإنـسانية فـي تراجع واضح، فمـا كـان مطروحًـا فـي نهايـة أربعينات القرن الماضـي أو حتـى عقب هزيمـة يونيـو ١٩٦٧، يعد مثاليًّا مقارنـة بمـا هـو متـاح مـع بدايـة هذا القرن، وفـي جميـع الحـالات لـم تكـن الحلول المتاحة في يوم ما بسبب التأثير العربي في القضية، بل كان دائمًا بـسبب الأوضـاع الدوليـة، ابتـداء بـالحلول التـي طرحتهـا بريطانيـا عقـب هزيمـة العرب فـي حـرب ١٩٤٨، ومـا أعقـب ذلـك مـن تـداعيات الحـرب الباردة بين الغرب والاتحاد السوفيتي خلال عقدي الخمسينات والـستينات وخـصوصًا عقـب هزيمـة ١٩٦٧، حينمـا كانـت إسـرائيل علـى اسـتعداد للانسحاب من الأراضي التي احتلتها فـي ١٩٦٧، مقابل إقامـة سـلام دائم مع الفلسطينيين والعرب.

ثـم جـاءت معاهـدة كامـب ديفيـد التـي أحـدثت شـروخًا فـي الـصف العربـي ممـا ضـاعف مـن قـوة إسـرائيل وزاد مـن غطرسـتها لكـي تنفـرد بالأرض الفلسطينية من خلال سياسة اعتمدت على أن العرب لـديهم قـدرة فائقة على النسيان، ومـن خـلال الـصراعات العربيـة العربيـة والفلـسطينية الفلـسطينية راحـت الـسياسة الإسـرائيلية تحـدد أهـدافها بوضـوح وتركـت للعـرب حريـة الكـلام وإصـدار البيانـات الإعلاميـة التـي اسـتهدفت تهدئـة الشعوب العربية التي انتفضت وهي لا تملك إلا الغضب بينمـا راح الإعلام العربي يمارس دوره السلبي باقتدار في محاولـة لامتـصاص تلك الثـورات هنا وهناك.

لقد عوَّلنـا كثيـرًا علـى الموقـف الأمريكـي الـذي راح يبـدي اهتمامًـا ظاهريًّـا بالقضية مـع بدايـة كـل حقبـة رئـاسية مـا يلبـث هـذا الاهتمـام أن يتراجع مع نـهاية كل حقبـة، مـع التلويح بحل للقضية مع بدايـة كـل فتـرة رئاسية جديدة، بعد أن أصبحت الولايـات المتحدة الأمريكيـة بمثابـة قبلـة

للسياسيين الفلسطينيين والعرب من ذوي الياقات ناصعة البياض، وفي جميع الحالات لم نجن إلا علقمًا، لأن الواقع على الأرض الفلسطينية كان شيئًا مختلفًا، فالحكومات الإسرائيلية المتعاقبة راحت تنفذ برامجها على الأرض رغم مظاهر الاختلاف بين القوى الإسرائيلية التي تبدو أحيانًا متصارعة لكن جميعها تعمل وفق سياسة مخططة ومرسومة تستهدف المزيد من السيطرة على الأرض والمزيد من الخلافات الفلسطينية الفلسطينية، التي وصلت لذروتها مع نهايات العقد الأول من هذا القرن، وبدت وكأنها أكثر تعقيدًا من المشاكل الفلسطينية الإسرائيلية، والمؤسف في الأمر أن كل المبادرات العربية التي استهدفت حل الخلافات الفلسطينية الفلسطينية قد باءت جميعها بالفشل ولا يبدو في الأفق أي حل لهذه الخلافات، فالمشاكل قد تعقدت وتجاوزت كثيرًا السياسة والحزبية إلى خلافات من الوزن الثقيل لدرجة تستعصي على الحل.

وفي غيبة أية حلول عملية بين الطرفين راحت ملامح قيام دويلتين صغيرتين إحداهما في غزة والأخرى في الضفة الغربية يفتقدان كل مقومات الدولة بما يشبه عصر الدويلات الأوربية خلال العصور الوسطى، وكل دولة تملك جيشًا وإعلام وكلاهما يخطط للنيل من الآخر، والعرب لا يملكون إلا المشاهدة وحرب الفضائيات الفارغة، وفي بعض الأحيان الدعم المادي والغذائي من قبيل التظاهر بالمساندة.

سوف يسجل التاريخ مآسي العرب وعجزهم وهوانهم لكي تقرؤه الأجيال القادمة، فقد عجزوا باقتدار عن حل قضيتهم التاريخية (القضية الفلسطينية) وسوف يسجل لهم – أيضًا - أنهم مضوا في خلافاتهم وصراعاتهم إلى نهاية الطريق، وأضاعوا على شعوبهم فرصًا تاريخية لكي تكون لهم مكانة في ظل عوالم تتقدم بخطوات سريعة نحو إنجاز أعمال كبيرة في الديمقراطية والتنمية، كما سيسجل التاريخ أنهم أضاعوا حقوق شعوبهم بعد أن انشغلوا بسفاسف الأمور، بينما يمضي العالم نحو العلم وفق قواعده وقوانينه، وانشغلت شعوبنا بأفكارها الضيقة وخلافاتها المذهبية التي تجاوزت العقل والمنطق.

لقد عجز العرب باقتدار عن حل أي مشكلة، وفي الغالب يلقون بأدرانهم وهمومهم في أتون ما أسموه بالمؤامرة التي اتسعت بأذرعها الطويلة لكي تستوعب أخطر الأشياء وأقلها شأنًا، ابتداء بالصومال الذي يوشك على أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، مرورًا بالسودان الذي يعيش على حافة الهاوية ووصولا إلى العراق الذي نفضنا أيدينا عنه، وصولاً إلى فلسطين قضية العرب التاريخية التي استشهد في سبيلها مئات الآلاف، وما تزال دماء أبنائها تنزف كل يوم، دليلاً على عجز العرب وهوانهم بعد أن كتبوا على أنفسهم شهادة موتهم بأنهم أمة خرجت من التاريخ.

د. محمد صابر عرب